مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN–2536–0027

الغربة والاغتراب في رواية ((منازل اللوعة)) لمحمود السامرائي

باحث الدكتوراه محمود عامر حسين
الجامعة الإسلامية في لبنان
mahmoodamir٥١٥@gmail.com
المشرف الأستاذة الدكتورة ساره سليم كنج
محاضر في الجامعة اللبنانية

الملخص:
الغربة والاغتراب مفهومان مختلفان وإنْ اتفقا في المعنى اللغوي الذي يعني النزوح عن الأوطان والابتعاد عن الأرض التي ولد فيها، فلغربة منوطة بأن تترك بلدك،لأي سبب تهجير شتات من أجل البحث عن لقمة عيش تعيش غربة ولكن وطنك في قلبك وتتوق للعيش فيه. أمّا الاغتراب فهو مستويات، فقد تعيش اغترابا في بلدك، وقد تعيشه في الشتات، فالاغتراب شعور نفسي داخلي وهو أشمل وأوسع من الغربة، فالغربة تقتصر على البعد الجسدي، بينما الاغتراب يشمل مستويات عدة: غربة جسدية، غربة روحية، غربة تأملية فكريّة نفسي. ولأن الأدب يشيع فيه الحزن الذي يسبب اغترابا وهناك الغربة فقد جاءت رواية منازل اللوعة للكاتب محمود السامرائي محملة بهذه المعاني من غربة وترك للمدينة والوطن والبحث عن مكان آمن آخر، وما تسبب أحداث الرواية من اغتراب نفسي ونفور من المجتمع، ما جعل الرواية تحفل بهذه المفاهيم وتتفتح بطريقةٍ عفوية على هذه المعاني الانسانية وما تثير في القلب من شجن وألم.

Summary:
Alienation and estrangement are two different concepts, even if they agree in the linguistic meaning, which means displacement from one's homeland and moving away from the land in which one was born. Alienation entails leaving your country, for any reason, being displaced diaspora in order to search for a living. You live as an estranged person, but your homeland is in your heart and you long to live in it. As for estrangement, it has levels. You may experience estrangement in your country, or you may experience it in the diaspora. Estrangement is an internal psychological feeling and it is more comprehensive and broader than estrangement. Estrangement is limited to the physical dimension, while estrangement includes several levels: physical estrangement, spiritual estrangement, contemplative, intellectual, and psychological estrangement. Because sadness is common in literature, which causes alienation and estrangement, the novel "Manazel Al-Lawa" by the writer Mahmoud Al-Samarrai came loaded with these meanings of estrangement, abandonment of the city and homeland, and the search for another safe place, and the events of the novel cause psychological alienation and alienation from society, which made the novel full of

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

these concepts and blossom. In a spontaneous way, it conveys these human meanings and the grief and pain they arouse in the heart.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آل بيته وصحبته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار.

وبعد،

عرف الادب العربي الغربة والاغتراب مبكرًا ومنذ عصره الجاهلي، فقد كتب الشعراء بحزن ولوعةٍ عن فراق الأماكن، والحبيبات، والأهلين، وما تترك في القلب، فيسلون عن الفراق بالشعر، وكذا باقي العصور، ولاسيما الحديث الذي انفتح على ثقافات كثيرة، مختلفة وتعزز ثقافة الآخر.

ومن هنا تأتي رواية الكاتب محمود السامرائي ((منازل اللوعة)) لتصف الغربة والاغتراب الذي أدرك عائلة فقيرة تعيش في قرية، فغير حالم من حال إلى شتاتٍ وتفرقٍ وغربة ونزوح إلى أماكن بعيدة، وهذا كله مع الموت والفناء ولد شعور حاد بالاغتراب النفسي والاجتماعي والنفور من الآخرين، ومن هنا جاء بحثي الموسوم ((الغربة والاغتراب في رواية ((منازل اللوعة)) لمحمود السامرائي))، وقد قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين:

المبحث الأول: تعريف بمصطلحات البحث، وعرفت بالغربة والاغتراب في اللغة والاصطلاح، ثم بينت الفرق بينهما، ثم عرجت على سيرة الكاتب ومؤلفاته. أما المبحث الثاني فجاء عن الغربة والاغتراب في رواية منازل اللوعة. ثم خاتمة فيها أبرز النتائج، ثم قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

تعريف بمصطلحات البحث

أولًا: الغربة والاغتراب:

الغربة والاغتراب عالم مستغلق يسعى إلى تشكيل الإنسان تشكيلا جديدًا مختلفا، ويدفعنا للتساؤل" ما الذي يجعل الإنسان يغترب ويفضل الهروب صوب أرض هي ليست حتما أرضه وسماء ليست سماؤه؟ وما الذي يجعله يفضل أن ينتبذ مكانا قصيا يكفل له الكفاف من العيش مكرها لا بطلا؟ الغربة أصبحت تيمة زئبقية مهما كتبنا عنها لا يمكن القبض على أسرارها لأنها تختلف من إنسان إلى إنسان، ومن سيكولوجية إلى أخرى، ومن حالة إلى حالات شتى. نأتي إلى تعريفهما.

في اللغة:

تردّد مفهوم الغربة في الشعر العربيّ عبر عصوره الأدبيّة، لالتحام الشعر بواقع أمّته. وارتبط مفهوم الغربة في المعاجم العربيّة بالمكان والبعد عنه، ولا ينفك عن هذا المفهوم. فالغربة فهي: "البعد عن الوطن، يقال: غربت الدار، ومن هذا الباب غروب الشمس كأنه بعدها عن وجه الأرض" [١] فهو النزوح عن الوطن والاغتراب، منه: تغرب، واغترب، وقد غربه الدهر. والغريب هو: البعيد عن وطنه [٢].

مصطلحا الغربة والاغتراب مأخوذ من الجذر اللغوي "غرب"، الذي يعني حدّ الشيء، "يقال هذا غرب السيف، ويقولون كففت من غربه أي أكللت حده، وقولهم استغرب الرجل إذا بالغ في الضحك، ممكن أن يكون من هذا كأنه بلغ آخر حد الضحك" [٣].

ويوضح الاستاذ أحمد مختار عمر إلى أن الاغتراب مصدر من الفعل "اغترب" وهو فعلٌ دالٌ على معنى الضياع، وفقدان الإنسان شخصيته وكيانه مما يجعله يحسُّ بالحاجة إلى الثورة والخروج عن المألوف كي يستعد هذا الكيان، وتلك الشخصية [٤].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

فالغربة والاغتراب إذن، وردت في معظم المعاجم اللغوية العربية بالمعنى نفسه من دون أن تفرق بينهما، وهو التنحي والذهاب والبعد عن الوطن، مع الإشارة أن المعاجم العربية لم تفرق بين مصطلحي الغربة والاغتراب، فالغربة مقترنة بالابتعاد عن الوطن وفراق مرتع الصبا والأحبة والأهل والخلان، وهي بهذا ترتبط بالمكان وهذا غير الذي تجده بالاغتراب حيث تجده شعورا نفسي بتملك الإنسان لسبب ما، فيشعر بالاغتراب حتى في وطنه وبين الله وأحبابه.

في الاصطلاح:

للغربة معانٍ عدة ومختلفة، وهي تختلف من إنسان لآخر، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر، ذلك لأنها تتلون بطبيعة صاحبها، وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات، وبطبيعة العصر وما يحتويه من قيم أو أعراف، ومعارف والغربة ظاهرة قديمة رافقت المجتمعات البشرية منذ بدء الخليفة، ولكنها غربة واضحة المصطلح والمفهوم، بينما اتخذت لها صورا معقدة في العصر الحديث بل صارت من أكثر المفاهيم إثارة للجدل بسبب التعريفات الكثيرة التي وضعت لها، هذا ويشار إلى أن مفهوم ظاهرة الغربة قد تداوله العديد من الادباء والشعراء بدلالات مختلفة لكن تلك الاختلافات، [٥] والتباينات يمكن ردها إلى أصل واحد يجمع بينهما مفاده "أن الغربة تتمثل في الشعور الذي يمكن أن يشعر به الإنسان عندما يغادر مسقط رأسه أو موطنه إلى مكان آخر، أو الشعور الذي يراود الفرد حين يضطر للانفصال أو النزوح عن مجتمعه". [٦]

أما الاغتراب فقد عد المستشرق "فروم" أول من قدم الاغتراب بوصفه مصطلحًا أدبيًا، وبوصفه مكونًا نفسيًا، وذلك في تعريفه للاغتراب حيث يقول: "هو ما يعانيه الفرد من خبرة الانفصال عن وجوده الإنساني، وعن مجتمعه وعن الأفعال التي تصدر عنه، فيفقد سيطرته عليها وتصبح متحكمة فيه، فلا يشعر بأنه مركز لعالمه ومتحكم في تصرفاته" [٧]. فهو تعبير عن انحلال الرابطة بين الفرد والآخر، ونشأة مسافات بينهم.

ونلاحظ بواسطة التعريف السابق أن مفهوم الاغتراب عند "فروم" يتشكل من العناصر الآتية:

أ. معاناة إنسانية: أي أن الاغتراب ليس إلا معاناة داخلية للإنسان، فتصيبه بالبعد عن مجتمعه.

ب. الانفصال عن عالمه: ونتيجة لهذا الإحساس الداخلي يشعر الإنسان بالضياع، فينفصل عن الأحداث الاجتماعية والنفسية التي تمر به، ولا يعود قادرا على التحكم بها.

ج. فقدان السيطرة: إذ يفقد المغترب سيطرته على تلك الأحداث والحالات الاجتماعية والنفسية التي تمر به، ويغدو تابعا لها.

د. الأحداث التي تمر بهذا الإنسان الذي يحمل إحساس الاغتراب هي المتحكمة فيه وبتصرفاته، وهذا الإنسان لا يعود قادر على فهم تلك الأحداث، ومن جهة أخرى فهو ليس مركز لعالمه الذي يعيش فيه [٨].

وقد خضع مفهوم الاغتراب إلى مجموعة من وجهات النظر الفلسفية التي كان لها دور في تشكيل عناصره، وتبلور مفهومه بشكلٍ عام؛ إذ إن مفهوم الاغتراب الحديث لم يأتِ إلَّا نتيجة لمكوناتٍ فلسفيةٍ متعددةٍ، كان من أهمها نظرية **"العقد الاجتماعي"**، إذ تعد هذه النظرية المصدر الفلسفي الرئيس، الذي وظف مفهوم "الاغتراب" قبل هيجل، وتقوم هذه النظرية على مبدأ تعاقدي التنازل أو التخلي، إذ تنشأ عملية تعاقد بين الأفراد طرف أول والسلطة طرف ثان. بتنازل الأفراد في المجتمع المدني عن بعض أو كل حقوقهم الطبيعية مثل حريتهم في أخذ حقوقهم بقوتهم، والقصاص ممن يعتدي عليهم، كما كان حاصلا في المجتمع الإقطاعي، بحيث توكل هذه المهمات للسلطة أو الجماعة السياسية، مقابل حصول الأفراد على النظام والأمن والحرية والمساواة. ففكرة " العقد " التي تنص على تنازل الأفراد عن بعض حقوقهم الطبيعية للسلطة هي في أصلها قائمة على " الاغتراب " لكنه اغتراب طوعي بإرادة الإنسان؛ لأن فيها حفظ أمنه وحريته من خلال السلطة [٩].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

وقد بين (جان جاك روسو) أن الاغتراب الإنساني ينقسم إلى نوعين وفقا المفهوم نظرية العقد الاجتماعي، القسم الأول: وهو اغتراب قسريٌّ، ويعود هذا الاغتراب إلى زمن الإقطاعيات؛ إذ كان الإنسان يعيش حالة من الاغتراب القسري الذي يفرضه عليه طبيعة الإقطاع في ذلك الحين، والثاني: الاغتراب الطوعي: وهذا ناشئ من طبيعة انتظام الإنسان تحت لواء العقد الاجتماعي، وفقدانه بعض المكونات الاجتماعية، والحريات التي يعيشها للدولة، وذلك في محاولة للوصول إلى غايته من الحياة الاجتماعية المستقيمة، فإن حماية هذه الحقوق والحريات الخاصة بكل فرد لا بد أن تخضع لبعض ملامح الاغتراب الطوعي من هؤلاء الأفراد [١٠].

نخلص إلى التفريق بين المصطلحين، فالغربة ليست نفسها الاغتراب، إلى أن الغربة إذن هي حنين الإنسان المغترب للوطن وثقافة الوطن وأهله في الوطن، مع عدم الارتياح لثقافة المكان الذي يعيش فيه بعيدا عن الوطن. ولما كان الشعور بالحنين للوطن يطغى على عقل الإنسان المغترب بين الحين والآخر، فإنه يُقلص قدرة المغترب على التركيز على إدارة شؤون حياته اليومية... فالغربة هي الحنين لمكان يعيش في مخيلة زمان رحل منذ زمن بعيد، ولم يعد له وجود، ولن يعود.

أما الاغتراب فهو عالم افتراضي يعيش المغترب فيه بقايا العمر بعيداً عن ثقافة الوطن، يبحث في داخله عن وطن بديل، مع إدراكه الواعي أنه لن يعثر على وطن مهما طال الزمن. الأمر الذي يعني أن الاغتراب قلق وجودي من الصعب التعرف على هويته ومكانه، ومن الأصعب ايجاد المسكنات الكفيلة بالتغلب عليه واستعادة الشعور بالاطمئنان... إنه محاولة فاشلة للهروب من وجود يعيش خارج الزمان، إلى وجود وزمان ليس لهما مكان. وحين يجتمع الاغتراب والغربة معاً في شخص واحد، فإن شعور الإنسان هذا يتحول إلى حالة تساؤل عن المصير، يغلب عليها الصراع في داخل ذات مغتربة تعيش في مكان غريب متنقلة بين أمس مات ولن يعود، ومستقبل لن يرى النور يوماً مهما طال الزمن. [١١]

ثانيًا: الكاتب محمود السامرائي ورواية منازل اللوعة:

وهو كاتب وروائي عراقي من مواليد مدينة سامراء، العراق.

واستاذ الأدب العربي الحديث في قسم اللغة العربية، وعضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين. صدرت له عدة روايات وكتاب نقدي:

- وحي الحب، رواية.
- دموع أموية، رواية.
- رماد الشوق، رواية.
- منازل اللوعة، رواية.
- موسم البراءة، رواية.
- الألم في روايات محسن الرملي، دراسة.

وقد نال عدة جوائز وتكريمات، نذكر منها:

- مسابقة اتحاد الأدباء والكتاب للشباب، الدورة الأولى، ٢٠١٨.
- جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع (٢٠١٩) بدولة الإمارات عن روايته (رماد الشوق).
- المركز الأول بجائز اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين -الدورة الخامسة- عام ٢٠٢٤، عن رواية موسم البراءة.

أما رواية منازل اللوعة فهي رواية عن الغربة والشتات والضياع الذي سيصيب عائلة فرج الله، الرواية الصادرة عام ٢٠٢٤ في القاهرة هي رواية عراقية مؤثرة، في ستينيات القرن الماضي وفي صحراء محافظة الأنبار الممتدة والقرى المتناثرة تجري حكاية ضياع الطفل (فرج) وجده، لتخوض الأم رحلة البحث

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

عن ولدها وأبيها في مدينة (الفلوجة)، وما يصاحب هذه رحلة الضياع من غربةٍ، واغتراب، وتغرب الأبطال، ومن أحداث اجتماعية وسياسية من تاريخ العراق وكيف تفاعل الأبطال معها، مثل نشوء المدن وتأسيس النظام الجهوري وتفاعل الأفراد مع القضايا العربية. فالرواية حافلة بعناصر البناء الفني من زمانٍ ومكانٍ وشخصياتٍ وأحداث، ولاسيما وأنها تجري في القرن العشرين وقبل أن تنشأ المدن العراقية بصورتها الحديثة. وتنتهي الراوية بعثور الأم (هادية) على طفلها فرج وانتحار التي عثرت عليه أول الأمر، ثم يعود فرج إلى قريته في الصحراء وتنتشر الافراح بعودة فرج.

المبحث الثاني

الغربة والاغتراب في رواية منازل اللوعة

لم يكن الكاتب محمود السامرائي مختلفا عن أدباء كثيرين وظفوا مظاهر الغربة والاغتراب في رواياتهم، وما ذلك إلا لأن الغربة والاغتراب مظهر إنساني، يتبلور ويظهر ويتمثل بألوان الحياة، إلا أن الذي يتطور هو الفن، والرواية بشكل الخاص التي تستوعب هذه الموضوعات، فـ"الرواية لم تتجمد بل ظلت تتطور وتتبلور وتمر بمراحل جديدة وستمر بمراحل أخرى إلى ما لا نهاية". [١٢]

أولًا: الغربة:

لقد ارتبطت الغربة بالأدب منذ وجوده ومنذ أن عرفه الانسان، وأصبحت محوراً رئيساً من محاوره، وفي العصر الحديث والمعاصر، إصطبغت الغربة بطابع خاص لارتباطها بالشتات والمنافي، فأصحبت من القضايا المهمة في السرد العراقي المعاصر لأنها لصيقة بمحنة المنفى القسري أو الإختياري عند كثير من الكتاب الذين أجبرتهم ظروف معيشية واجتماعية وسياسية إلى الابتعاد عن موطنهم الأصلي. [١٣]

في رواية السامرائي تظهر الغربة منذ المشاهد الأولى، إذ تتفتح الرواية على مشهديَّة ومفارقة ورحلة شتات، تزعل الأم هادية، تغضب من زوجها، تهجره وتتغرب ما يدفع الطفل إلى الضجر:

"ضجر فرج وهو يعلم أن أمه ستأخذه غدًا من الرطبة إلى كبيسة، وما في هذه الرحلة من مشقةٍ تقطع الأنفاس، يقفون على الشارع، العام، تصهر الشمس أدمغتهم حتى يأتي الباص، ثم يأتي الباص لتبدأ رحلة التعاسة الحقيقية، سبع ساعات والمحرك يئن في الرأس والأجساد تستحيل أشباحًا مصفرة". [١٤]

في النص نرى بطل الرواية الطفل فرج وهو يغضب من الرحلة والتغرب، إذ إن المسافة بين كبيسة والرطبة في الصحراء وفي طرق متنقلة قديمة تمنع أن يكون السفر مريحا، لذلك يكون السفر محملًا بالعذاب، ومن هنا نأتي الغربة محملة بدلالة العذاب والقهر كما ستكون عليه طول الرواية.

ونرى الرواية حافلة بالتعبير عن ثقافة الآخر، فهنا نرى العلاقة والحوار بين الشيخ فرج الله وزوجته حول سفر ابنهم إلى بغداد وما في النص من مؤثرات ثقافية:

يقول العجوز بتفاعلٍ:

"-لو تزوج من أجنبية كان خلصت من اللوم!

-ولمَ اللوم، هل دخل سن اليأس؟

-يا امرأة، الناس تقول، من لم يتزوج فهو منحرف، الله يكفينا، من يتجاوز العشرين من دون زواج فهناك في بغداد يذهب للخمارات والفاجرات الله يعيذنا.

تقول بصوتٍ غليظٍ قاسٍ:

-لا، محمد لن يفعلها.

-يا أم محمد، بغداد غير كبيسة! والله خلق مدنًا أخرى غيرها.

-ولكنه صائم مصلٍ، ويقرأ القرآن، وهذا كله يعصمه، دينه في قلبه.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

-ومن يقول الدين واحد؟ هناك الناس بلا دين حقيقي، أنسيتِ عواد ابن خالك عندما ذهب في رمضان الماضي ورأى الناس تأكل وتشرب كأن الشهر الفضيل لم يصلها؟

وضعت راحتيها على صدرها وهي مصدومة، أكمل العجوز:

-عدا الشيوعية والعولمة والقومية والتي كلها تبتعد عن الدين!

-وما هذه يا حاج؟ مدن جديدة؟

-لا، أفكار خطيرة ضد الدين! تخيلي واحد من هؤلاء الذين يقرأ لهم ولدك وتعلم من كتبهم في أوروبا يقول: الانسان أصله قرد!

-يا غارة الله خفي!

-أي، يكفرون، يخالفون ما أمر الله، يعني القرآن يقول خلقنا آدم من تراب، وهذا المهبول يقول كان قردا.[١٥]

نرى هنا النص مليء بالتحولات، فالنص السردي مكسور بمحكيات وأثار وفسحات وبنيات نصية، متشاكلة ومتباينة، متساكنة ومتنازعة، ثقافة ومعلمة، يتم دمجها داخل عملية التكون النصي، لتتحول إلى علامات تخييلية منتجة وخلفية الثقافية تنسج مسارات السرد، وغير هذا التكون المنبثق عن عوامل داخلية تشمل اللغة والمتخيل، وأخرى خارجية تستوعب الحوارية، ونظرا للمكانة الطاقة التي يشغلها النص الروائي ويناليته، التي تستدعي التمعن في جوانبه الخارجية والداخلية، فالأب والأم من القرية، والابن سافر بعيدًا، وتقف بثقافةٍ أخرى، وتمعن مع زوجته حتى صار اندماجًا ثقافيًّا مختلفًا.

ونرى الابن محمد، الطبيب المتحرر الذي تدفعه الأقدار لمدينة سامراء بعد تغرب طويل، ليصدم بالمدينة وأجوائها وكيف أنها لا توالم أفكاره المتحررة، يقول:

"عندما وصل سامراء لم يجدها مدينة، إنما تكية تغفو على النهر، واجتاحت قلبه مرارة أول الأمر، فهو ليس صوفيًا متولهًا حتى يأنس بجوار الإمامين، ولا قرويًا يروم تجريب المدنية الأولى، ولا باحثا في الشؤون الدينية والاجتماعية حتى يفرح بها، كان طبيبًا، عائدًا من بلادٍ بعيدةٍ، ومثقلًا بكل ما منحته تلك البلاد من ملذاتٍ وصخب وانفتاح ومعرفةٍ، ثم يسألونه لماذا تشعر بالوحشة؟ كانت الوحشة قد تسللت إلى قلبه، فلا هي مدينةُ أهله، ولا هي مثل بغداد، مدينة تعويض. صعد في الباص المنطلق إلى الموصل، في ثلث الطريق تقريبًا توقفت الحافلة، اشار إليها السائق: (هذه سامراء)".[١٦]

هنا تتجلى مظاهر الغربة من عدة اتجاهات، أولها أنه جاء إلى مدينة جديدة التي هي سامراء، وثانيها أنه كان في بريطانيا، لذلك كانت عنده نوع من الوحشة والغربة، وعبر الكاتب عنها بالوحشة لشدة المعاناة والقسوة التي كان عليها.

ونرى مظاهر الغربة تتجلى في رحلة الجد الذي يغادر أرضه وينحو نحو الفلوجة الذي سيموت في الطريق:

"عندما ابتعدوا عن البلدة وارتفعت الشمس وبدا الطريق أمامهم صحراويًا مجدبًا بدأ العجوز يتلو آياتٍ من القرآن ويلفه مع التلاوة الخافتة صمت هدوء أسطوري، ويسبح بمسبحته، ثم صار يقول: (الطريق إلى الله محفوف بالشوك والورد)! وكلما اخترقت الشاحنة المتثاقلة الصحراء أكثر زادت الحرارة، وتحول مكانهم إلى نارٍ محرقةٍ، تغير وجه فرج الله، صار أحمر بفعل الحرارة، لم تكن الشمس وحدها من تسقيهم هذه المرارة، بل ومحرك الشاحنة مع صوته الهادر يبعث حرارة لاذعة، يتصفد جسدُ عبد الخالق عرقًا، من كل جانب حتى أن دشداشته صارت رطبة، وهما تنز جباههم والشيخ صامتٌ إلا من أذكارٍ وصلوات على الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم".[١٧]

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

هنا حاول الكاتب التعبير عن الغربة بوصفها صحراءً، من رجلٍ تقي ورع، مثل شخصية الجد، الذي يغادر الأرض وهو يخاف الغربة، ويشعر دنو أجله، فهو صامت، ولفظة الصمت هنا إشارة، إلى حالةٍ من النفور، من هذه الغربة التي تسيطر عليه.

ونرى شخصية عبد الخالق السائق يذكر اباه الذي هو تائه وضائع:

"زعم أنه ابن الملا هادي عرفان الكبيسي، وهذا الاسم لا يعرفه كبار السن فضلا عن المختار إلا أخبار متناثرة تزعم أنه قصد الموصل وكوردستان وبغداد لطلب العلم، واستقر حينا عند الشيخ عبد الكريم بيارة وعند الشيخ أحمد الراوي في سامراء، ثم انقطعت أخباره". [١٨]

هنا يوظف الكاتب الغربة بمعنى عرفاني صوفي، وهو سفر هذا الشيخ إلى مكان مجهول متعدد، من دون الثبات على واحد، إذ تستحيل الحقيقة إلى مادةٍ سائلةٍ غير مكتملة على غرار الصوفية. واختار له اسم الشيخ عرفان اشارة إلى نزعة صوفية. ويجيبه الملا أن هذا الغياب مبرر وله دافع روحي، فيقول:

"-لعله غاب، تخفى عن الخلق، عبادةً، وتنسكًا، وخلاصًا من المعصية، يا أخي كما تعلم هؤلاء الأولياء يخافون من أن تظهر كراماتهم كما تخاف البنت إذا أتتها دورتها، حياءٌ عجيب يتلبسهم، فتراهم ينفرون من الناس، وبطريقةٍ غريبة، ويقصدون الجبال، القرى، الصحارى، البحار، البلاد البعيدة، المنسية، يعلمون صبية، وأميين، مجاهيل عند الخلق، معروفون عند الخالق"! [١٩]

يحاول الكاتب عندما يختفي ويضيع فرج في مدينة الفلوجة بعيدًا عن أهله أن يختار اسمًا مختلفًا للوطن، ويحاول أن يتعايش مع الغربة، فيتساءل عن الوطن ومكان المرء ما هو؟ يقول:

" الوطن، اسم جامع لتفاصيل كثيرة تنطوي تحته، وعلى بساطة هذه المفردة وشهرتها إلا أنها تبق غامضة وعصية على التعريف، ما وطن المرء؟ منبته، موته، ذاكرته، الأمان حتى لو كان في بلدٍ بعيدٍ؟ كثيرة هي خواطر جدي فرج وهو يرى الفلوجة لأوّل مرة، صحيح أنها ستغدو فيما بعد روحه ومأواه، بل ولن ينظر إليها إلا كما نظر نزار قباني لبيته الدمشقي: (هل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان في قارورة عطر؟ بيتنا كان تلك القارورة)، أما أبي فهذه المدينة هي قارورة العطر التي سكبت لها رحيقها ومنحته روحها، أما لحظة الدخول فهي خوفٌ، وترقبٌ وانتظار" [٢٠]

هنا يثير الكاتب اسئلة كثير عن الوطن والوطنية والأرض، بالنسبة للعديد منا كما هو حال الطفل الذي سيكبر في مدينة غريبة، يرتبط كل شخص منذ ولادته في بيئة مكانية ما. على سبيل المثال بمعنى مجازي، "المنزل"، الذي يعني "الوطن الروحي"، لعلاقته بمكان معين، وله دور في تكوين الهوية الخاصة. فالمنزل، مرتبط بمكان، بالناس أو العائلة أو الأصدقاء أو الأعياد والعادات أو الدين، اللهجة المألوفة أو الذوق أو الرائحة أو اللحن، مثلا، "قيّم مرتبطة ببيئة بلدنا"، يمكن أن تثير فينا مشاعر الوطن. والوطن هو الشعور بالأمن والأمان والانتماء والتوجه. لكن هذا الشعور لا يرتبط بالضرورة بمكان واحد أو فئة رعوية (عرقية) محددة، بل يمكن أن ينشأ في مجموعة متنوعة من الأماكن في مساحة جغرافية معينة. بل هنا يستعير تعبير نزار قباني ليضفيه على المدينة التي هو فيها غريبا.

وتبقى الغربة ملاذا لكثير من الأحزان والأسئلة، فهنا شخصية الدكتور محمد الكبيسي تبدو غامضة ومبهمة من غير وضوح، فهو لا يعرف ماذا جرى لأهله وشيقته على اعتبار أن الغربة داء لعين لا مفر منه، يقول:

"في رسالة الدكتور حمد هناك كثير من الأشياء التي حاول محمد تفسيرها، الأيام جرت هناك بشكلٍ مقلوب، يقول حمد أنه يرفق رسالة زوج أختك المختار أبو حبيب، متى تزوج المختار هادية؟ ويقول أن فرجًا ضائع، هوة عميقة لا تعرف قاعا، جهز أغراض السفر التي تأخرت غلى مطلع الشهر واكتفى بمكتوب، خاصة بعد إصرار غصون على السفر ومشاركته حزنهم الكبير. تأجل العمل على رسالة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

الماجستير والكثير من المشاريع، ومنها مشروع السفر إلى نيويورك الذي طرأ عليه في الفترة الأخيرة، فقد صادق الدكتور يحيى الحمصي، كاتب وطبيب سوري، التقى به صدفةً عند ناشره، تعارفا، أبلغه يحيى أنه في زيارة لأهله في حمص، ويتردد للناشر في بيروت، ويعيش في أمريكا. تعجبَ محمدٌ. فشرح له الحياة هناك، من عملٍ في أحدث المستشفيات، وحرية وسقف من الكرامة المنشودة". [٢١]

فهنا نرى الغربة مشروعا بالنسبة لشخصية محمد، تتفتح رواية السامرائي بشكل فضيع على المصائر الضبابية وتظهر الشخصيات على نحو مختلف لتتشابك مع مصائرها المبهمة في هذا القاع، فهو يتعارف على طبيب سوري الذي سيكتشف أنه معارض عتيد ومنذ فترة بداية السبعينات وما سيثير في نفسه من شجونٍ واقبال على مشروع الهجرة.

ثانيًا: الاغتراب:

إذا كان الاغتراب في الفكر وعلم النفس هو غربةٌ نفسية فهذا كان حاضرًا في رواية السامرائي التي نحن بصدد دراستها، تتبلور هذه الظاهرة التي تقترن بالحزن والوحدة، فالاغتراب هو نتيجة للوضع الاجتماعي ما ينعكسُ على نفسه ووضعه في هذا المجتمع حتى تحول إلى انسان يعاني من الاغتراب. [٢٢]

نقرأ النصوص الروائية في رواية السامرائي فنرى ملامح الاغتراب النفسي، بداية في فرج الله البطل الذي انتبه إلى مشهد مفزع في الطفولة ما جعله دائم الحزن وهو عندما يحاول أبوه قتل أمه بطريقة صادمة لتتفح طفولة الفتى على حزن مرير:

"أما ما يذكره من صورة الأب وصورة الطفولة الأولى فقليل، لعل أشهرها مشهد أبيه وهو يحاول قتل أمه! تحاصره تلك الصورة بطريقة مفزعة، يتألم، وكثيرًا ما انسابت الدموع على خديه وهو يستحضره. كان يجلس في باب البيت عندما دخل أبيه مسرعًا، لم يعبأ كثيرًا بدخوله، فهو لم يكن يهتم بوجوده، بقي يرمق الشمس وهو تجنح نحو غروب وما تثر في نفسه من متعةٍ ولذةٍ، سمع أصوات تتفجر، دخل فرأى ما لن ينساه، أبوه بضخامته المعهودة كأنه سدٌ يمنع الماء من التمرد، يحمل أمه بيد واحدةٍ من رقبتها، وارتفعت ثوبها حتى بان فخذها –يعتقد أنه المرة الأولى والأخيرة التي يرى هذه المنطقة من جسد أمه- وجهها استحال حزنًا ومرارةً ولا تقوى على الصراخ، لكنها أشارت بعينيها إليه، استدار الأب فرأى فرجًا بلحظة صدمة لا تفسر، ترك الأم تهبط على الأرض دفعة واحدة فارتجت عظامها ثم بكت، لم ينبس الطفل فرج، سال ماؤه من تحته وهو ساهم ينظر إلى أمه". [٢٣]

وهذا سيولد معاناة عند فرج حتى عندما يكبر مع أزمة اليتم ويبقى انسانا مغتربا، يقول الراوي:

"فيما بعد سيسأل أبي: لماذا يأسرك الناس بتلك النظرة الكئيبة لحظة اليتم فتنزلق في قاعٍ رهيب من الاسئلة والادراك الغامض"؟ [٢٤]

ونرى شخصية غصون زوجة الدكتور محمد، ستعاني هذه الشخصية من حالة الاغتراب عندما ترفضها العائلة وترفض أن تعيش معهم في هذا الجو، فهي غريبة، من مدينة بعيدة، يقول الكاتب:

"نامت غصون ليلتها على قلقٍ وشعور جارف بأنها خارج العائلة، هنا، كل شيء مستغلق ومختص بسلالة عائلية كأن الكون لا يتسع لسواهم، صحيح أنها تمتلئ بجو كئيب ضبابي وهو مبرر في بيت ينام على موت، لكن الأحزان نوع من الوئام والوثاق الذي يعبر المسميات، فكيف استطاعت هذه العائلة أن تعتصم حتى في الحزن منها؟ النظرات الحارقة التي توجهها الأم لن تخطئها، تعرف مغزاها، تذكر عزوفها على حضور الزفاف، أو المباركة على الأقل، وكيف أن زوجها غرق في همٍ وقلق، تُرى هل يعقل أن رحمها الذي عجز عن الحبل هو بسبب أهله؟ ربما تعويذاتٌ، سخروا سحرة، أو عين أصابتهما حتى جف رحمها مثل أرض بورٍ ولن يدركها مطرٌ. تسلطن هذا الخاطر، رغم قناعتها العلمية التي تعتمد على العلم أولًا، شأنها شأن

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

زوجها الذي ترك العادات والتقاليد خلفه وقصد سامراء طالبًا. تشعر بالامتلاء به، والاستغناء عن غيره، تملك العالم أجمع. ثم استسلمت إلى فكرة أنهما سيبقيان يومين فقط، ثم تنتهي هذه الخواطر الطاحنة، لا بأس بقليل من الكدر". [٢٥]

يقول الكاتب نامت على قلق وشعور، وهي استعارة مكنية تفسر الحالة التي وصلت إليها من البعد والخوف والجو العائلي الكئيب، سرعان ما تتفتح أسئلة ملحة تحتاج إلى إجابة، لماذا ترفض العائلة، وما السبيل إلى اقناعها؟ ثم تسترجع، تستحضر الذاكرة، ثم ترجع إلى موضوع عدم الانجاب وكيف أنه يشكل معضلة حقيقية لهم.

ويخاف الدكتور محمد من مدير المستشفى، وكيف أنه صدمه عن وضع المدينة، ما جعله يشعر بالاغتراب نحو:

"تنتهي الخطوط ويحك رأسه عن سر غضب المدير ثم العزومة المباغتة التي لن يجد بديلا عن الاستجابة، رمى الجريدة، شعر بخوف يزحف نحوه، وتحول وجهه إلى وجهٍ مذعورٍ كوجه أرنب". [٢٦]

ورحلة فرج وجده شكلة نوعا من الاغتراب الاجتماعي، ما جعل الطفل لا يفلح في شيء حتى في الفهم، يقول الراوي:

"لماذا أكتب عن جدي وأنا الذي يتخيل حكاياته عبارة عن فُتاتٍ متناثر في الصحاري والوديان والمدن وباحات المساجد؟ ما الذي يعني القارئ هو يبحر في رحلةٍ قاسيةٍ يشق الصحاري نحو مدينة أحبها بعد أن دخلها محزونًا، أخفق في التعلم وتعلق بها على نحو مجنون"؟ [٢٧]

الخاتمة:

والان نقف عند أبرز النتائج:

١-شكل موضوع الغربة والاغتراب فارقا في رواية السامرائي، إذ تعتمد في البنية الأساسية على موضوع الغربة والاغتراب وما فيها لوعة، فالشخصيات كلها اغتربت ورحلت وتشتت في الارجاء.

٢-الغربة فراق الوطن، فراق مكاني وهجرة من مكانٍ إلى آخرَ، وهو تمثل في الرواية عبر شخصيات عدة، مثل شخصية الجد الذي مات على قارعة الطريق، وشخصية فرج، وهادية والدكتور محمد.

٣-أما الاغتراب فهو شعور نفسيٌ تملأ نفسة الشخصيات، فهي تعاني غالبا من انفصال عن الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه، فهي لا تنتمي إلى أي بيئةٍ من البيئات التي تنتمي إليها وتثير في الوقت ذاته اسئلة عن الوطن والوطنية والغربة والاغتراب.

الهوامش

---

[١] معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت٣٩٥ هـ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل- بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م: مادة (غرب) ٤٢١/٤.

[٢] ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (ت: ٧١١ ه)-، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ : مادة (غرب) ٦٣٩/١.

[٣] معجم مقاييس اللغة: مادة (غرب) ٤٢٠/٤.

[٤] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، دار عالم الكتب- القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م: مادة (غرب) ١٦٠٢/٢.

[٥] ينظر: تجربة الغربة والحنين عند ابن خفاجة، فتحية دخموش، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، ٢٠٠٥: ١٢.

[٦] شرح المعلقات العشر، الزوزني، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٧٢: ١٦٧.

[٧] الاغتراب في الشعر العباسي - القرن الرابع الهجري، سميرة سلامي، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م: ١٩.

[٨] ينظر: ظاهرة الاغتراب في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام، آمال عبد المنعم الحراسيس، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة - الأردن، ٢٠١٦م: ٦.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد السادس الثلاثون – آب ٢٠٢٤– صفر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

[٩] المقدمات الكلاسيكية لمفهوم الاغتراب، فالح عبد الجبار، دار كنعان للنشر والتوزيع - دمشق، ط١، ١٩٩١م: ١٧.
[١٠] العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، دار المعارف- القاهرة، ط١، ١٩٥٤م: ٥٨ - ٦٦.
[١١] الغربة والاغتراب،، الدكتور محمد عبد العزيز ربيع، صحيفة الدستور، -https://www.addustour.com/members/٣٢٧
[١٢] بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة: ٢٧.
[١٣] ينظر: الغربة في الأدب المهجري الجديد روايات إنعام كجه جي انموذجا، أمل إلياس- يا دكار لطيف، مجلة رانكو للعوم الانسانية، ٢٠٢٢: ٥٢.
[١٤] منازل اللوعة، محمود السامرائي، عصير الكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٤: ١١.
[١٥] منازل اللوعة: ٣٤.
[١٦] منازل اللوعة: ٣٤.
[١٧] منازل اللوعة: ٢٩.
[١٨] المصدر نفسه: ٧٥.
[١٩] المصدر نفسه: ٧٦.
[٢٠] منازل اللوعة: ٨١.
[٢١] منازل اللوعة: ١٥٣.
[٢٢] ينظر: غربة المثقف العربي، د. حليم بركات، مجلة المستقبل العربي، عدد٢، تموز، ١٩٧٨: ١٠٦.
[٢٣] منازل اللوعة: ١٠
[٢٤] منازل اللوعة: ١٥.
[٢٥] المصدر نفسه: ٢٣-٢٤.
[٢٦] منازل اللوعة:٤٣.
[٢٧] منازل اللوعة: ١٣٣.

CAMBRIDGE SCINTIFIC JOURNAL